الاغتراب اللّغويّ في الأوطان العربيّة

الدكتورة روضة مبادرة تونس

دكتورة وأستاذة فلسفة

ملخّص البحث بالعربية

إنّ ما تعيشه العربية اليوم ليس سوى حصاد سياسة استعمارية شاملة تضاف إلى أزمة داخلية في ذاتها و من ذاتها لأنّه ليست العولمة اللغوية هي المشكل الوحيد للأزمة الهوية اللغوية بل إنّ الصراع الكائن بين اللغة الأم و اللهجات كالامازيغية و الكردية .إن المهمة العاجلة التي ينبغي القيام بها كمفكرين عرب هو تشخيص واقع اللغة العربية اليوم و تدارس التحديات التي تواجهها في ظل العولمة وأبعادها الخطرة على اللّغة والهويّة،و التي تعود إلى سياسة الهيمنة بقيادة أمريكا، التي خلقت فكرة أن العالم النامي أو الثالث عدوًّا خصوصا عندما حاولت تعميم ثقافتها ولغتها كغطاء ثقافيّ لهذه الدّول النامية، على اعتبار أنّ اللّغة هي وعاء الفكر والحداثة و بصفة خاصة اللّغة الإنكليزيّة.

هنا نشهد ضربا من الإقصاء اللغوي أو النظرة الدونية المتعلقة باللغة ومثلما تقول الروائية العراقية عالية ممدوح " أشعر أنّ لغتي العربية هي حصني الأخير " تصديقا للفيلسوف الألماني هايدغر لغتي مسكني ووجودي وموطني .

ملخّص البحث بالأنجليزية

Abstract

What Arabic is experiencing today is nothing but the harvest of a comprehensive colonial policy that is added to an internal crisis in and of itself, because linguistic globalization is not the only problem of the linguistic identity crisis, but rather the conflict between the mother tongue and dialects such as Tamazight and Kurdish.

The urgent task that should be undertaken as Arab thinkers is to diagnose the reality of the Arabic language today and study the challenges it faces in light of globalization and its dangerous dimensions to language and identity, which go back to the policy of hegemony led by America, which created the idea that the developing or third world is an enemy, especially when it tried to Disseminating their culture and language as a cultural cover for these developing countries, given that language is the vessel of thought and modernity, especially the English language.

Here we witness a kind of linguistic exclusion or an inferior view of language, and as the Iraqi novelist Alia Mamdouh says, "I feel that my Arabic is my last fortress," confirming the German philosopher Heidegger, that my language is my dwelling, my existence, and my homeland.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تفعيل النقاط التالية:

1. الوعي بقيمة اللغة العربية كلغة رسمية للأوطان العربية وبالتالي كمقوم من مقومات الهوية.
2. تشخيص واقع اللغة الأمّ من حيث الممارسة و التطوّع.
3. تشخيص وضعية الاغتراب التي تعيشها العربية في البلدان العربية ومدى تأثيرها على الهوية .
4. العمل على ترسيخ مبدأ اللغة الهوية و النهوض بالهوية اللغوية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهميّة الدراسة في مدى اهتمامها باللغة و الهوية في إطار التلازم الذي يحكم علاقة الهوية كإنتماء واللغة مقوم من مقومات هذا الانتماء.

الدراسة بمثابة دعوة للتطوّع اللغوي أي أنّ خدمة العربية و الاهتمام باللغة الأمّ من شأنه أن يأصّل الهوية العربية.

منهجية الدراسة:

اتخذت الدراسة منهجا تحليليا تشخيصيا يقوم أساسا على النقد والمساءلة.

تحليل واقع اللغة اللام و نقد الفراغات و العوائق التي تحول دون ممارستها كتعبير عن الهوية.

مقدمة الدراسة

بسم الله الرحمان الرحيم "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[1] فصلت" إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (يوسف)

مما لا ريب فيه أنّ حضور اللغة وتوفير الأمن الغوي واحد من أهم مقومات الهوية لكلّ مجتمع وعزّ القوم بعزّ لغته لكن ما يثير قلق العربي اليوم هو أنّاللغة العربية تعيش أزمة من ناحية علاقتين محلية و أخرى عالمية خارجية.ومن هنا يأتي الهلع من عولمة لغة الآخر على حساب اللغة الأم.

[1] القران الكريم سورة فصلت، الآية 3.

لكنّ ما بلغته الأمم من تحضّر وتقدّم وتضخّم لمنطق النجاعة و المردودية و من ثمّ الطابع البراغماتي المادي الّذي تتّسم به العلاقات بين الدول هو الّذي شكّل أزمة الهويّة اليوم بالنظر إلى أنّ الحديث أضحى عن هويات متنافسة تتسابق نحو العالميّة بالسيطرة والتحكّم ليكون النموذج الأفضل هو الّذي يبلغ مرتبة الحضارة العالميّة وفق عبارة صامويل هنتنغتون وبالتالي يتعولم ويهدف هذا النموذج الحضاري المهيمن إلى فرض سياسته ،اقتصاده، مقدّسه ، لغته ... وبالتالي ثقافته و من ثمّ هويّته فمن ثمّ ينصهر الخصوصي في العالمي العولمي و تذوب الهويات في هويّة دخيلة تتدّعي الكونيّة الحقيقيّة و عليه فإنّ إغتراب الهويّة سوف يؤثّر سلبا على الهويّة اللّغويّة و من هنا سوف يمثّل تهديدا للأمن اللغوي في الحضارات المهيمن عليها ثقافيا وهي الحضارات الغير غربيّة خاصّة منها الحضارة العربيّة.

إنّ هذا الانصهار في الآخر الثقافي و التنصّل من الثقافة المحليّة خاصة من ناحية المقوّم الأساسي من مقوّمات الهويّة ألا وهو اللغة العربيّة يجد تبريره في الخضوع اللاواعي و المحتكم إلى المصلحة المادية في مجاراة لغة الآخر و انتحالها دون الالتفات اليم اهو خصوصي الّذي ينسجم مع القوانين والواقع المحليين، وفي ظل غياب الاعتراف و الافتخار باللغة الأمّ، وسياسة لغوية راشدة،تبطل تهمة الاستعمار اللغوي الأجنبي لحساب المصالح المادية وعلى حساب الهوية الوطنية و الثقافة الخصوصيّة.

أسئلة الدراسة:

إنّ الأسئلة الآنية التي بمقدورنا طرحها هي:

كيف يمكن تشخيص وضعية الاغتراب الّتي تعاني منها اللغة العربية في العالم العربي ؟ ما هي مصادرها ثمّ أين تكمن تداعياتها ؟ هل أنّ حالة الاغتراب تعبر عن أزمة فكر أم أزمة انتماء ؟ إلى أيّ مدى يمكن توفير الأمن اللغوي للأوطان العربيّة و تحريرها من شتى ضروب الاستعمار اللغوي ؟ لماذا لا نتكلّم لغتنا ؟ و كيف تستطيع الثقافة العربية أن تحافظ على كيانها في ضلّ هيمنة بقية الكيانات الثقافية الأخرى ؟

تشخيص وضعية الاغتراب اللغوي

تواجهه اللغةُ العربيةُ حالة من الاغتراب و أزمات و ليس أزمة نتيجة ضعف العرب في لغتهم وتتجلى في سبع مستويات مستوى الطلاِّب، ومستوى المعلمين، ومستوى المناهِج، ومستوى الترجمة،

ومستوى التعريب، والمستوى الشخصيّ، والمستوى الخارجي[2]. لكننا سوف نركز بحثنا عن تمظهرات الأزمة من ناحية ارتباط اللغة بالهوية في اغترابها على مستوى خارجي.

إنّ اللغة إذا ما اقتصرنا على معناها الاصطلاحي هي كما عرّفها ابن جني " هي أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أعراضهم " [3]. ومن هنا كانت اللغة " هي الإنسان و الوطن و الأهل و اللغة هي نتيجة التفكير هي ما يميز الإنسان عن الحيوان و هي ثمرة العقل و العقل كالكهرباء يصرف تأثيره و لا ترى حقيقته " [4].

والاغتراب اللغوي هو أن تغرب الشعوب عن لغتها الأم أي أن تعامل لغتها بغربة واستقالة وإغفال من جهة اللغة و من جهة الهوية في الآن ذاته.

إنّ اللغة و الهوية أو الهوية اللغوية مفهومان مرتبطان من جهة أنّ اللغة جزء من الهوية و الهوية باللغة تكمل جزئها الناقص واللغة هوية رمزية تجمع بين مجموعة بشرية معينة ، وسيلة الثقافة و الحضارة، هي التي تخبرنا بتاريخ الأمم و الحضارات سواء كانت كتابة و مشافهة ، إنه ضرب من الارتباط الجوهري ، رابط فعل و تفاعل إذ تعبر الهوية عن اللغة وتعبر اللغة عن الهوية . لكن " الحضارة هي أعلى تجمع ثقافي من البشر و أعرض مستوى من الهوية الإنسانية يمكن أن يميز الإنسان عن الأنواع الأخرى و هي تعرف بكل من العناصر الموضوعية العامة مثل اللغة و التاريخ و الدين و العادات و المؤسسات و التحقق الذاتي للناس " .5 من هنا كان الذي يؤثر في الهوية يؤثر في اللغة فاللغة بدون شك سوف تتأثر تأثيرا عميقا بما يحدث للهوية من تحويل وجهة أو انزياح أو اغتيال إن لم نقل اغتصاب و انتهاك لحرمتها و استقلاليتها .

مما لا ريب فيه أنّ حضور اللغة وتوفير الأمن الغوي واحد من أهم مقومات الهوية لكلّ مجتمع وعزّ القوم بعزّ لغته لكن ما يثير قلق العربي اليوم هو أنّ اللغة العربية تعيش أزمة من ناحية علاقتين محلية و أخرى عالمية خارجية.

---

[2] د. جودي فارس البطاينة/ د. عمران أحمد عبد الكريم الطويل، اللغة العربية والهوية، ديسمبر2015، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، الجزائر، العدد 8 ص 64.

[3] البشير ربوح .مجموعة من المؤلفين، السؤال عن الهوية في التأسيس و النقد و المستقبل، 2016، (منشورات الكلمة، دار الأمان، ضفاف، الاختلاف)، الطبعة الأولى، ص161.

[4] البشير ربوح .مجموعة من المؤلفين، السؤال عن الهوية في التأسيس و النقد و المستقبل، 2016، (منشورات الكلمة، دار الأمان، ضفاف، الاختلاف)، الطبعة الأولى، ص161.

[5] هنتنغتون صامويل ، صدام الحضارات إعادة صنع النظام ، 1994ترجمة طلعت الثابت ، سطور ، الطبعة الثانية ، ص81 .

تمظهرات الاغتراب اللغوي و مصادره

غربة داخلية

إن غربة اللغة الأم اليوم هي غربة باطنية قبل أن تكون خارجية بالنظر إلى جهل و تجاهل قيمتها من طرف أبنائها و هو ما يمكن أن نسميه تنكر للأصل أو عقوق اللغة الأم نتيجة الجرائم التي افتعلت في حقها:

الأولى في فساد الفصاحة، والبلاغة، و الثانية في طمس الهوية و ضربها ، أو بالأحرى تشتدّ الأزمة بممارسة العامية و الدارجة من جهة يقول الدكتور فؤاد بوعلي رئيس الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالرباط في التاريخ الإسلامي لم تكن الفصحى لغة التواصل في الشارع بل كانت هنالك دوارج متعددة، لكن الاختلاف مع لغة الشارع أصبح شاسعا.

إذ ولدت هذه الأزمة من رحم السياسات التعليمية الفاشلة أضحت فيها العربية الفصحى ممزقة بين الجهل و التجاهل.

فالعربي كما يعتبر محمد عابد الجابري يفكر بالعامّية و يتحدث بالعاميّة المفصّحة و يكتب بالفصيحة، جرّاء ذلك الانفصام الحاد الذي قام في لحظة ما بين اللغة و الحياة، فتوقف نمو معجم مفردات اللغة العربية عند عتبة القياس و السماع المتوارث، و لم يعد قادراً أو قابلاً لتحصيل آلاف المفردات التي عجّت و ما زالت تعج بها الحياة العامة و مستجدات العلوم و المعارف، إلى الحد الذي تجمد معه هذا المعجم.

في أعقاب القرن الماضي المتعلم يتقن قراءة اللغة العربية بفصاحة في المراحل الأولى من تعلمه ولكنه اليوم يصل إلى الثانوية ولا يجيد قراءة نص باللسان العربي دون أخطاء الأسباب هنا قد تعود للمنظومة التعليمية البيداغوجية إذا نظرنا إلى الوقت المخصص للغة الأجنبية مقارنة بالوقت المخصص لساعات اللغة العربية و لعل سبب آخر قد ألقى بضلاله على اللسان العربي و هو الانفتاح الحضاري الأعمى.

يبدو أن هذا التنكر للغة الأم يمثل اغتراب لغوي فليس الاغتراب عن الذات فقط بل إن الاغتراب عن اللغة هو احد اشد أنواع الاغتراب قسوة على الذات و المجتمع و بالتالي الهوية بما إن " اقوى العوامل التي تقف وراء ضعف لغة ما هي عدم كفاءة أهلها و ضعفهم في مقابل الآخر الذي يتمتع بقوة اقتصادية و تقنية عالية "[6] .

[6] لطيفة النجار، اللغة و الهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية، 2013،المركز العربي لأبحاث و دراسة السياسات ،الطبعة الأولى ،بيروت، ،ص 201 .

غربة خارجية

في استعمار اللغة و الهوية

إنّ وضعيّة اللّغة العربية اليوم وضعيّة حرجة إذا ما شخّصنا الخطر الذي يجوب روابطها و خاصّة إذا كان ارتباطها بوضعيّة الوطن العربي الثقافية و السياسية. فالعربية اليوم تعيش مخاضا عسيرا سببه أزمة الهوية والصراع مع هويات أخرى.

إنّ أزمة الهوية التي تعيشها الحضارة العربية اليوم تشهد بأنّ الاستعمار الغربي ولئن أجليت آلياته العسكرية إلاّ أنّه لم يرحل بعد بل ترك ثقافته و لسانه و حتى أفكاره.لتكون التبعية الثقافية أو الذوبان في ثقافة الآخر هو ما يساهم في شتاتها و وضياعها نتيجة الانبهار بالغرب و خاصة لسانه أو لغته و ليس أدلّ على ذلك من انتشارا لمدارس الناطقة بالألسن الأجنبية في كل الدول العربية و اندثرت بذلك مقولة " لغتي... هويتي" .

ومن هنا فأزمة الهوية التي يعيشها المواطن العربي مصدرها غياب لغته كوسيلة تواصل بين الشعوب المختلفة في الوقت الّذي تحضر فيه لغة الآخر الثقافي في كثير من الشوارع العربية و الأماكن العامة وهنا كان دور المستعمر مؤثرا بشكل خطير على الهوية اللغوية فلئن مثّلت العربية اللسان الموحّد للأمة و الثقافة و بالتالي الهوية والتي عبرها تتواصل المجتمعات و تلتقي إلاّ أنّ اللسان المستعمر سعى إلى تهميشها و جعلها ثانوية من ناحية ممارستها و النطق بها و قد يكون هذا التهميش ناتج عن ارتباطها بالدين الإسلامي ولعلّ الموقف الأجنبي من ديننا لا يخفى عنا خاصة مع الأحداث الأخيرة الّتي شهدها العالم .

فالمحتل أدرك قوة العربية و قيمتها و قد عمل على محاربتها و تأثيمها و العالم يشهد على أنّ اللغة اليوم ليست اللغة العربية مثلما حدث و يحدث في المغرب العربي حيث قام المستعمر الفرنسي على الحط من قيمة العربية وتصويرها لغة متأخرة ليس لها عظم الشأن كي ترتقي لمرتبة التحضّر بالنسبة للأغلبية الساحقة إن لم نقل كلّ الشعوب المغربية و العربيّة ككلّ ، و الأمر نفسه قد حدث مع المستعمرات الأنجليزية في الخليج العربي ، أو ربّما هناك أكثر حدّة من هنا في المغرب العربي حيث يسيطر اللسان الأنجليزي على مختلف القطاعات (الاقتصادية و التجارية و النقاشات السياسية و الحوارات الإعلامية) إلى درجة أنّ العربية لم تجد قيمتها و منزلتها حتى في الشوارع الخليجية العربية ، وهو أمر ينذر بكارثية الوضع الذي وضعت فيه العربية و الأقسى في ذلك هو أن تأتي الطعنة من أبنائها حتى أنّ العربية لم تعد اللغة الأم التي تعلم أولادها الفصاحة و البلاغة و التي تبرهن على قوّة هويتها فالاغتصاب العنيف للعربية يشير إلى أنّ الأزمة هالكة للثقافة و أنّ التهديد طال الهوية فحين تقوم دولة

المحتل بمحاولة اغتيال الهوية اللغوية الفلسطينية بفرض العبرية كلغة رسمية يفنى المجتمع و تنتهك الهوية التي بها يحيا و يزدهر فاللغة هوية و الهوية هي العروة الوثقى التي بها تتكاتف و تتماسك المجتمعات .

أن الأغلبية العظمى من الشباب العربي تعتقد أن الحديث بلغة أجنبية سمة من سمات التفتح والتحضر والثقافة و الفخر بها مقابل الإحساس بالدونية عندما يتحدثون لأنها في نظرهم علامة تأخر وجهل. وهذا يمكن أن نسميه نوعا من الإعاقة النفسية من ناحية اللغة مثال و مرجع هذه الإعاقة و هذا الجهل بقيمة هويتنا اللغوية هو وفق تفكير " ابن خلدون اقتداء المغلوب بالغالب[7]. و مرة أخرى نعود إلى مدى تأثير الاستعمار و ما خلفه من جهل و تأثيرات نفسية.

ولئن أدرك العربي أهمية اللغة وأيقن أن المستعمر سيطر على اللغة، بترويج لغة أخرى، ولئن استقلت الأوطان إلا أنها بقيت تحت وطأته ثقافيا ومن حيث اللغة خصوصا.

اللغة و أزمة الانتماء : اغتراب اللغة من اغتراب الهوية:

العولمة تحكم سيطرتها على اللغة :العولمة اللغوية

إنّ اغتراب الهوية من منطلق راهني يتأتى من تلك الهوة التي أحدثتها وسائل الاتصال و مواقع التواصل الاجتماعي المعاصرة كالانترنيت التي أصبحت منتشرة بشكل نووي في الجسد الاجتماعي لشعوب العالم و الشعوب العربية على وجه الخصوص، فالتطبيقات التي تقدمها هذه الوسائل وضعت اللّغة العربية في الحضيض خاصة إذا كانت اللّغة الممارسة هي لغة الآخر وهو ضرب من الإكراه فرضته العولمة الاتصالية و المعلوماتية التي خلقت كائنات افتراضية تتواصل تواصلا افتراضيا باعتماد إشارات ولهجات في شكل رموز كالحروف و الأعداد أو الرموز الإبداعية لتعبر عن مشاعرنا و أعمالنا و أفعالنا .

العولمة هي نظام يمكن الأقوياء هي فرض الديكتاتوريات اللاّ–إنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر و حرية السوق وفق تعبير روجي غارودي.

كرست العولمة تصنيفا طبيعيا للدول و الشعوب في كامل العالم أي دول المركز ودول الأطراف باعتبار أن من يقود العالم هو دول المركز في حين أن الأطراف هي الدول التي تخضع لسلطة المركز

[7]ابن خلدون ،المقدمة 1984، الدار التونسية للنشر ، تونس .

وهي كما يعتقد البعض اصطناع عالم الأرض بصبغة واحدة شاملة لجميع أقوامها وكلّ من يعيش فيها وتوحيد أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية و الفكرية من غير اعتبار اختلاف الأديان والثقافات والجنسيات والأعراف.

فالعولمة إذن اتجاه لا محيد عنه يعمل على فرض نمط حياة واحد يتماشى به جميع البشر في هذا العالم و هي مسار مستمد من الفكر الليبرالي الغربي تحت غطاء مفهوم " الحضارة العالمية " لكنها إنتاج مميز للحضارة الغربية فهو مفهوم ابتدعه الغرب من أجل تبرير تغوّل ما يسمى بالعولمة ، أي تبرير الممارسات التسلطية التي تمارسها الثقافة الغربية.

إن العولمة تدعي مسار كوني حقيقي ف الوقت الذي تتسم فيه بفرض التشابه و التماثل لتعميم النموذج الأفضل: النموذج الغربي الأمريكي تحت غطاء سياسة عالمية كوكبية توحد البشر غير أنها تبث في صيغة عقيدة وإيديولوجيا هدفها الأساسي مواجهة الثقافات الغير غربية باستغلالها و استعمارها.

يبدو أنّ العالم العربي من مغربه إلى مشرقه قد عاش الاستعمار في شتى ضروبه وظاهرة تغريب الشعوب أضحت تمسّ مقومات الهوية كالتفكير، الثقافة، الدين وخاصة اللغة و لعلّ وراء هذا الاستعمار التخلف الّذي نعتت به الأوطان العربية مقابل التقدم والرقي الذي امتاز به الغرب فتكبّر الغرب الذي تقوده نزعة الأمركة من جهة و تواطؤ بعض الحكومات و بعض الثقافات عن بعض مقوماتها اعتقادا منها أنها تساير تقدم الحضارات و العولمة هو الذي جعل من تنين العولمة يغتصب إحدى أهم مقومات الهوية الأساسية و هي اللغة (اللسان) فأمام هذا التغوّل الذي يمارسه الغرب الهووي المزعوم في كونية قيمه و الوهمي في اعترافه بالتنوع الثقافي و اللغوي ، تشهد العربية أزمة حادة خاصة إذا كانت العولمة في إحدى معانيها الثقافية تلك التي تنتشر على حساب حضارات و ثقافات و لغات أخرى تفرض عليها نموذجها لتنصهر في فضائها وتذوب في هويتها المزعومة .

إنّ الاغتراب هنا يتجلى في تمزق اللغة العربية كمقوم من مقومات الهوية العربية الإسلامية أي التمسك بخصوصيتها و هويتها و بالتالي التقوقع و الانعزال من جهة الذوبان في عولمة لغوية شرسة تطمس كل خصوصية ضعيفة لتحتويها بقوتها وتفرض عليها ثقافتها و بالتالي لغتها يقول الدكتور بوبكر جيلالي : " إن جدل العولمة و اللغة في عالمنا العربي و الإسلامي الراهن يعبّر عنه وقوف اللغة العربية باعتبارها مقوما أساسيا في الهوية العربية الإسلامية و بما تملك من خصوصية ثقافية ودينية و تاريخية في وجه مطالب العولمة و أهدافها وتحدي ما حققته العولمة وتحققه في الواقع و الحياة فهي لم تقف عند الهيمنة الاقتصادية و العسكرية بل تعدت ذلك إلى ممارسة الهيمنة الثقافية و اللغوية فهي تفرض لغة

كونية في التعليم و الإعلام والإدارة و الاقتصاد و سائر قطاعات الحياة دون اعتبار للتعدد و التنوع في الألسن " [8].

إنّ حالة الاستلاب الّتي تمسّ الأمن اللغوي في الأمة العربية ليس لها من سبب سوى الانتشار الواسع و المهيمن للغة الآخر الثقافي التي تفرض نفسها كلغة كونية تخضع بقية الحضارات على اعتناقها و النطق بها و هذا الأمر ليس سوى ضرب للغة العربية و طمس للهوية و الخصوصية في ذات الوقت .

فالتقليد الأعمى ، والغزو الفكري، ، ووصاية الآخر الثقافي من شانه أن يضعف اللغة التي هي ضرب من ضروب الهوية ،وقد ساهم إعجاب المثقفين العرب باللغات الأجنبية إلى القطيعة مع اللسان العربي الفصيح، فعندما حين يسافر العربي للآخر اللغوي لا يتكلم لغته، وحين يأتي إليه هذا الأخر يتكلم معه بلسانه لا بلسانه.فقد عمل الغرب على إضعاف لغة الإسلام بشتى الطرق و هو ما يستدعي العودة إلى أنفسنا و مراجعة ما تغافلنا عنه من هويتنا . لأن صورة الثقافة العربية الإسلامية في نظر الغرب ليست سوى تعبيرا عن الفشل بتعبير هنتنغتون" الثقافة الإسلامية تفسر إلى حدّ كبير فشل قيام الديمقراطية في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي "[9] .

إنّ الاستلاب و الهيمنة اللغوية هي تلك الظواهر التي تهيمن على عقلية شعب ما يرى أنه يجب عليه ممارسة اللغة الأجنبية في خطاباته اليومية، وفي نظمه التعليمية، وبذلك يبدأ العزوف عن اللغة الأصلية واحتقارها وهو ما من شانه أن يقوم على تغريب اللغة، و طغيان اللغة الإنكليزية كلغة ثانية قد تفقدنا لغتنا الأم، و أمة فقدت لغتها فقد فقدت الحياة، ودخلت في عِدَادِ الأموات ففقدان اللغة إذن إنذار بالموت.

إنّ هذه الوضعية التي آل إليها العربي يطغو عليها طابع الاستلاب اللغوي و الاغتراب الثقافي أي وضعية اللاّ–قيمة و الفراغ الهووي و القيمي إذ " تلحق اللغة باغتراب الهوية و تساعد في اغتراب

[8] البشير ربوح .مجموعة من المؤلفين، السؤال عن الهوية في التأسيس و النقد و المستقبل،2016، (منشورات الكلمة، دار الأمان،ضفاف،الاختلاف)، الطبعة الأولى، ص160.

[9] هنتنغتون صامويل ، صدام الحضارات إعادة صنع النظام ، 1994ترجمة طلعت الثابت ، سطور ، الطبعة الثانية ، ص47 .

الفكر بعد اغتراب الوجود و يصبح الاغتراب هو النسيج الفعلي للوجود العربي هوية و لغة و ثقافة فيغترب العربي في التاريخ و يخرج عن مساره"[10].

إن التبعية الفكرية والثقافية، والانبهار بالآخر، وبثقافته يضعف اللغة، فهو يتناول لغة الآخر ولا يعي بموت لغته فاللغة ترتبط بالهيمنة و في الراهن سيطرت اللغة الإنكليزية على الثقافي، الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي....وأضحت اللغة العالمية بين الدول وحتى في الحياة اليومية التي يمارسها العربي وأنه استغنى عن اللغة العربية وأصبحت هي البديل ومن هنا كانت لغة مهيمنة تقوم بممارسة ضغوط.وهذا ما يسمى ب **الامبريالية اللغوية**، بعبارة روبرت فيليبسون أو **امبريالية اللغة**، وهو أيضا عنوان لكتابه LinguisticImperialism هو مفهوم لغوي "يتضمن نقلَ لغةٍ مهيمنةٍ إلى قومٍ آخرين". ومن هنا يكون الاستعمار اللغوي مرتبط بضرب من الايدولوجيا حين يكون تعليم الإنجليزية هو في الحقيقة فعل إجباري إكراهي فهو فعل استعماري أداته لغوية بحتة.

يطرح الكتاب في فصله العاشر ظاهرة الهيمنة اللغوية و تحديدا ظاهرة اللغة الإنجليزية كلغة عالمية اذ أصبحت اللغة مهيمنة ويلعب تدريس اللغة الإنجليزية دورا بارزا في التعظيم من شان اللغة الإنجليزية فمن المثير للاهتمام إن اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة حاليًا على المستوى العالمي وعلى نطاق واسع ، وهو ما يشير إليه روبرت فيليبسون بمفهوم القوة، أي بمعنى امبريالية اللغة كما يقول الكاتب و فرض تدريس اللغة الانجليزية هو إمبريالية لغوية.

فعلاقة الهيمنة هذه تبرر الانصهار و مجاراة العولمة وخاصة منها العولمة اللغوية هو الذي يعمق وطأة الأزمة ، فاللسان الأجنبي يحتلنا حتى في بيوتنا ، هواتفنا ، شوارعنا ، خطاباتنا و حواراتنا اليومية ، فلا نكاد أن لا ننطق يوما ملفوظا أجنبي أو كلمة من كلمات اللسان الفرنسي أو الأنجليزي و خاصة اللسان المهيمن اليوم اللسان الأنجليزي[11]فالأنجليزية لغة العصروهذا ما يشكل أزمة هوية وهي أزمة مرافقة لنا في كل النواحي فأزمة الهوية ما تزال قائمة في الوطن العربي لان الصراع في العالم الجديد لن يكون إيديولوجيا أو اقتصاديا بل سيكون ثقافيا أو حضاريا بالمعنى الأدق" مثلما كتب صامويل هنتنغتون إذ " تظلّ الدول القومية هي اللاعبون الرئيسيون في شؤون العالم يتشكل سلوكها كما كان في الماضي بالسعي

[10] حسن حنفي ، اللغة و الهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية،2013 ، المركز العربي لأبحاث و دراسة السياسات ،الطبعة الأولى ،بيروت، ،ص199 .

[11] Paula González Fernández , Linguistic Imperialism: A Critical Study ,2005RevistaAlicantina de EstudiosIngleses 18: 85-110 .

نحو القوة و الثروة كما يتشكل بإنحيازاتها الثقافية و بما هو مشترك و بما هو مختلف "[12]وبقدر ما تعني العولمة الهيمنة اللغوية الثقافية الأميركية التي تفرض نموذجها الثقافي الكوني على الثقافات و الحضارات ومنها الحضارة العربية، بقدر ما تغييبها لتحل محلها فالتاريخ يشهد على الصراع الحضاري العربي الغربي، ويرى هنتنغتون أنالعالم يتوحد كله، بقيادة سلطة المركز ، فثقافته هي نموذج الثقافات، وباسم المثاقفة يتم انحسار الهويات الثقافية الخاصة في الثقافة المركزية مع أن مصطلح المثاقفة سلبي ويعني القضاء على ثقافة لصالح أخرى، ثم ابتلاع الأطراف داخل ثقافة المركز، وتبرز مفاهيم جديدة؛ التفاعل الثقافي.. لتنتهي إلى أن ثقافة المركز هي الثقافة النمطية، ممثلة الثقافة العالمية، مثلما حذّر صامويل هنتنغتون في كتابه الشهير الحضارة العالمية فضعف اللغة العربية يتأتى من هنا.

لئن ارتبط العرب بالاستعمار الغربي وكأنه تلك الكعكة التي تتفاهم وتتصارع حولها الدول الاستعمارية الغربية و بالتالي فقد كانت الشعوب تعاني من الاغتراب و الاستلاب نتيجة التخلف و التأخر الفكري و العلمي ، و لعلّ اغتراب الإنسان عن هويته أشدّ وطأة من تواجده منصهرا في هوية ليست هويته و لغة ليست لغته ، فالاغتراب ينتعش في إطار تغوّل عولمة لغوية ثقافية ، عولمة مهيمنة متجبّرة بقيادة غربنة و أمركة تدعي الكونية و القيم العليا في حين أنها تتخفى وراء كونية مزعومة زائفة تدّعي نية تحرير الشعوب من جهلها و تنويرها تحت غطاء إيديولوجي يدعى فكرة عبء الرجل الأبيض و هي في الحقيقة ليس لها من غاية سوى تمرير نموذجها الاستعماري و فرضه على بقية الخصوصيات.

واضح إذن أنّ الهوية اللغوية للعرب مستعمرة على مرّ التاريخ وتمزّق العرب بين لغتهم وخصوصياتهم أي أنّ اللغة كمقوم أساسي للهوية العربية الإسلامية و بين ما تفرضه العولمة من تحديات خاصة إذا كان المطلب مسايرة نموذجها من أجل إيديولوجيا عبء الرجل الأبيض الذي يحمل على عاتقه مهمة تنوير الشعوب وتقدمها في شتى المجالات و لتمرير سيطرة الحضارة الغربية لتصبح حضارة عالمية من هنا كانت التضحية باللغة ذلك أنّ العولمة لم تكتفي بفرض هيمنتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية بل تمادت حد الهيمنة الثقافية بالنظر إلى أنّها تفرض لغة عالمية دون مبالاة بمبدأ الاختلاف في الألسن و الثقافة و عليه فإنّ " أفق النجاح في الجمهوريات الإسلامية كئيبة الغرب حاليا هو أقوى الحضارات و سيضلّ كذلك لسنوات قادمة " [13]. فالأزمة هنا تكمن في التمزق الذي تعانيه الثقافة العربية من جهة ان العولمة قد فرضت عليها و من جهة حسها الإنتمائي و الشعور بالهوية التي تقتضي التمسك

[12] هنتنغتون صامويل ، صدام الحضارات إعادة صنع النظام ، 1994ترجمة طلعت الثابت ، سطور ، الطبعة الثانية ، ص 39 .
[13] هنتنغتون صامويل ، صدام الحضارات إعادة صنع النظام ،1994 ترجمة طلعت الثابت ، سطور ، الطبعة الثانية ، ص 48 .

بالخصوصية وهو أمر يجعلنا أمام إعادة مراجعة العلاقة التي تجمعنا بهويتنا فنحن بحاجة إلى فكر فلسفي نقدي يعود بنا إلى أنفسنا ، فكر عميق دقيق يجعلنا ندرس نفهم و نفسر هذه العلاقة التي تربط اللغة العربية بالهوية الإسلامية و باللغة العربية و تحديات العولمة في صيغتها الغربية.

صمود اللّغة العربية أمام هيمنة بقية الكيانات اللغوية :لغتي هويتي وموطني

إنّ جدليّة العلاقة بين اللغة والهوية تتجلى في كون اللغة هي عنوان التواجد في العالم والهوية ليست سوى مكمن يحتوي مقومات الانتماء. ربّ انتماء يجعلنا ندافع عن هويتنا بتكريمنا لغتنا و ثقافتنا.

فاللغة تشكل ذواتنا ونتعرف بها على الآخر وهي الشاهدة تاريخيا على الحضارة و تقدم الأمة و تطورها بما هي رمز هويتها.لذلك يجب ضرورة حماية هذه الهوية اللغوية من الضياع و اللاّ–قيمة لأن من فقد لغته وثقافته فقد كل شيء.و ليس له من لقب سوى فاقد الهوية لأنّ اللغة الأم تبقى هي الموحِّد الأهم لهوية الأمة وثقافتها، رغم تعدد و اختلاف اللهجات و العوائق العولمية التي تمنع من ممارستها بشكل رسمي و منتظم فلئن اختلفت الإثنيات و الأعراق في المجتمعات العربية ، فإنّ اللغة وحّدتها وجعلت منها تكتلا واحدا يجمع الكل في منظومة ثقافية مشتركة. و هذه مسلمة كافية لتأجيج الطموح من أجل استعادة مكانة اللغة العربية . تعدّ اللغة أهم مقوم من مقومات الثقافة لأنّ الثقافة مثلما كتب الكاتب السينغالي بابا كاي نداي هي اللغة قبل أن تكون أيّ شيء آخر فثقافات الأمم تتصل دوما صلة وثيقة باللغة التي تنطقها باعتبار أنّ اللغة تعبر عن جانب من الهوية و الانتماء الوطني و الإقليمي أو الأممي فهي المدخل إلى الحضارة و الثقافة و بالتالي خصوصية الناطق بها وهو ما يؤكده فيخته في كتابه نداء إلى الأمة الألمانية " إنّ اللغة هي رمز وجود الأمة بقدر أصالة اللغة و المحافظة على اللغة الأصلية أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة و شعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب " و يضيف الفيلسوف الألماني الكبير بأنّ " لغة أمّة من الأمم هي قوتها الطبيعيّة "[14] .

فقوة الهوية تنمو بقوة مقوماتها لأن الجذر الصلب لا ينتزع لان اللغة هي الوطن و المقام و هيبة المتكلم وكما يقول الفيلسوف الألماني هيدجر إن لغتي هي مسكني، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع، فاللغة التي تدل على هوية الفرد وتكشف عن ذاته ومن هو؟

[14]البشير ربوح .مجموعة من المؤلفين ، السؤال عن الهوية في التأسيس و النقد و المستقبل ،2016، (منشورات الكلمة ، دار الأمان ، ضفاف ، الاختلاف) ، الطبعة الأولى ، ص136 .

إنّ تاريخ كلّ لغة يحيل إلى تاريخ الجماعة البشرية التي كانت هذه اللغة أداة تعبيرها و هي عامة من علامات تشكل الأمة فاللغة هي الجنسية مثلما جاء في جريدة لوموند لسنة 1978 فاللغة إذن هي عامل من العوامل الثقافية التي تربط الجماعات البشرية .

لئن ارتبط العرب بالاستعمار الغربي تبقى اللّغة هوية، والعلاقة بين اللّغة والهوية هي علاقة الجزء بالكل، فالهوية أعم من اللغة؛ لأن الهوية لها مقومات أخرى غير اللغة فاللغة هي أساس الأمة وهي التي تربط الحضارات بعضها ببعض، وهي التي تخلد الأمم، فكأنها مفتاح الغد الذي يختزل الماضي وإرثه؛ فالثقافات تتحاور وتتداخل و تتلاقح باللغة وعليه فاللغة لا تزول إلا بزوال الأمة مثلما دوّن ابن خلدون ذات عصر . واللّغة هي السبيل الأعظم للحفاظ على الهوية الخاصة بكل شخص فالحفاظ على اللغة حفاظ للهوية لذا تعد اللغة أداة بالغة القوة للاعتراف بهوية شخص ما والحفاظ عليها. وتنوع الألسن اللغوية في العالم هو أداة للهوية الإنسانية لا يمكن الاستغناء عنها من أجل مواجهة متطلبات الثقافة المحلية واستنكار تعدد اللغات يؤدي إلى التقليل من إقامة جماعة إنسانية فالعولمة متحققة في كل الأحوال في الهيمنة الحضارية والتبعية الثقافية؛ وتبعية هويات الأطراف لهويات المركز، تجميعا لقوى المركز واندثارا لقوى الأطراف. لكن يجب التعامل مع مخاطر العولمة على الهوية اللغوية بحذر .

فكل مركز قوي يسعى إلى أن يتبعه الأطراف في نموذجه ومركز القوى الآن بيد الغرب بفضل العولمة، ويتطلب الدفاع عن الهوية كسر حدة الانبهار بالغرب، ومقاومة قوة جذبه، والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية. و يتطلب الأمر الوعي بمخاطر الاغتراب لأنّ " الاغتراب ازدواجية لا يمكن القضاء عليه إلاّ بإزدواجية أخرى وتقاوم كل مظاهر الإحساس بعقدة النقص تجاه الآخر التي تربت فيها أمام إيحاء الآخر لها بعقدة العظمة التي لديه (....) فالحضارات بين المدّ و الجزر ، لا توجد حضارة باقية إلى الأبد و أخرى ساقطة إلى الأبد (....) و ربّما الحضارة الغربية التي تشعر المواطن بالعظمة هي في الطريق إلى الانهيار كما تنبّأ بذلك فلاسفتها و ربّما الحضارة التي يشعر مواطنها بالنقص هي في الطريق إلى النهوض في ما يسمى "ريح الشرق " (....) وتسلك الطريق البديلة، الدخول في مسار التاريخ من جديد بعد أن خرجت منه " [15].

[15] حسن حنفي ، اللغة و الهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية،2013، المركز العربي لأبحاث و دراسة السياسات ،الطبعة الأولى ،بيروت، ،ص194 .

في ضرورة توفير الأمن اللغوي

الهويّة العربيّة مهدّدة بسبب عدم الاعتناء باللّغة ينتج عنه تموضع اللّغة العربيّة كهويّة وانتماء، فاللّغة هي الهويّة و دور اللّغة في إثراء معالم الهويّة إثنيّة كانت، أو دينيّة أو قوميّة. و الهويّة تتكوّن من جملةٍ من المحدّدات المتعارف عليها كالتّاريخ ، المقدس الأعراف والعادات والتّقاليد، إلى جانب اللّغة التي تشكّل أداة التّواصل المثلى.

أنّ مشكلتنا في العالم العربيّ في موضوع اللّغة والهويّة تكمن في عدّة نقائصَ أبرزها عدم توطين المعرفة في البلدان العربيّة، وتشريد الكفاءات في الدّول العربيّة وعدم إعطائها دورها الفاعل والاعتماد على الكفاءات من الخارج.

وعليه فان الحل يكمن في ضرورة وضع خطط تربوية علميّة للنّهوض باللّغة العربيّة خصوصا في إطار ازدواجية لغويّة يعيشها و يعاني منها المواطن العربي بين اللّهجات الدّارجة و العربيّة الفصحى من جهةٍ، وازدواجيّة لغويّة بين اللغة العربيّة واللغة الأجنبيّة في سياق أخر.لذلك يقتضي الأمر تخطيط مستقبليّ لتوفير الأمن اللغوي وتأكيد حضور العربية في الحياة اليومية ، العلميّة والعمليّة.

لقد تأسست الهوية العربية من استخدام العربية لغة، ومن الاعتزاز بالإسلام دينا ومن المحال أن نتصور شعبا بدون هوية. ذلك أنه لا يمكن للشعوب أن تتنازل عن هويتها، فاغتراب الشعوب هو في اغترابها عن هويتها ولغتها و العربية هنا لغة العرب و المسلمين ، فهي لغة القران الدين الإسلامي،يقول تعالى:"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ "[16] ،"كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"[17] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "[18] والرسول –صلى الله عليه وسلمَ– خاطب قومه العرب بلسانهم..

صفوة القول إن اللغة وعاء الثقافة الشعبية، ومستودع الذاكرة العلمية، و الأساس الثقافي للأجيال عبر العصور و الأزمان. وإنّ العبث بها هو عبث بالأنا الثقافية للإنسان.لان الألسن حينما تغتال فإنها تذهب بإرث ثقافي ضخم ، لأن اللغة مرآة الهوية و عينها التي تعكس روح الانتماء و الموقع و المنزلة الهووية التي تحتلها الذات في الوجود.

---

[16] القران الكريم سورة إبراهيم الآية 4.

[17] القران الكريم سورةفصلت، الآية 3.

[18] القران الكريم سورة يوسف ، الآية 2 .

رغم التجارب المزعجة التي مرت بها العربية في القرن الماضي كالانحناء أمام العاميات تارة وأمام اللغات الأجنبية طورا، إلا أنها صمدت أمام هذه التحديات سواء داخليا أم خارجيا صمدت وبقيت حية، فاللغة لا تموت إلا بموت أصوات أهلها لأنها صوت كل قوم.

وحسب مؤلف كتاب "الإمبرياليّة اللغوية" روبرت فيلبسون فإنّ مُنظمة اليونسكو تسعى جاهدة لتقديم وتطوير "إعلان عالميّ لحقوق الإنسان اللغوية" بهدف حماية حقوق اعتناق اللغة الأم في الشوارع و في المناسبات الرسمية و الثقافية و بالتالي و توفير الأمن اللغوي و الحفاظ على بعض اللغات التي في طريقها إلى الفناء.

لابد إذن من معايير مظبوطة للنهوض باللغة العربية تقوم أساسا على تعاون البيتِ مع المدرسةِ والجامعة لنحصد لغة قومية و وأشخاصا يعتزونً بهويتهم العربية [19]. لذلك يقتضي الأمر ضرورة العودة للقومية أي تعزيز الإنماء القومي كما نظّر إلى ذلك كمال بشر و غيره من المعاصرين الباحثين عن الهوية الحقيقية لأنّ القومية ليست سوى ذلك الولاء الصادق و الحقيقي للقبيلة، للمجتمع للحضارة و بالتالي للغة و الهوية. فما يمكن التعويل عليه من مقومات القومية هو أوّلا وحدة التاريخ و العرق و من ثمّ وحدة اللغة.

خاتمة

"تكلم يا هذا حتى أراك " هكذا دعا سقراط مخاطبه ليبين أهمية اللغة بما هي وسيلة من لا وسائل لهم وهي أداة تحاور و اعتراف فمن يملك لغة يملك الاعتراف و التقدير و السمو و بالتالي الهوية و الحرية باعتبار " أنّ الشعوب يمكن أن تكبّل بالسلاسل وتسدّ أفواهها و تشرّد من بيوتها وتظلّ مع ذلك عتيّة ، فالشعب يفتقر و يستبعد عندما يسلب اللسان الّذي تركه له الأجداد و عندئذ يضيع إلى الأبد " [20].

لذلك لابدّ لفعل التطوّع اللغوي أن يكون سبيلا عمليا نحو تحقيق شرط الانتماء والهويّة و تكريس لقيم المواطنة أو بالأحرى لابدّ من سبل لنهضتنا بلغتنا من أجل ضمان كينونتنا الثقافية و الاجتماعية و السياسية و بالتالي الحضاريّة و لنحضر في العالم و لتكون العربية لغة كونية نظريا و عمليا.

[19] د. جودي فارس البطاينة/ د. عمران أحمد عبد الكريم الطويل، اللغة العربية والهوية، ديسمبر 2015، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب، العدد 8، الجزائر، ، ص73 .

[20] محمود أحمد السيّد ،اللغة العربية و تحديات العصر ،الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق سوريا ،2008 ، ص 37.

المراجع

المراجع باللسان العربي

القران الكريم

ابن خلدون، **المقدمة**، 1984 **الدار التونسية للنشر**، تونس.

البشير ربوح .مجموعة من المؤلفين، **السؤال عن الهوية في التأسيس و النقد و المستقبل**، 2016، **منشورات الكلمة، دار الأمان، ضفاف، الاختلاف**، الطبعة الأولى.

د. جودي فارس البطاينة/ د. عمران أحمد عبد الكريم الطويل، **اللغة العربية والهوية**، ديسمبر 2015، **مجلة إشكالات في اللغة و الأدب**، العدد 8، الجزائر.

محمود أحمد السيّد، **اللغة العربية و تحديات العصر، الهيئة العامة السورية للكتاب**، دمشق سوريا ،2008.

حسن حنفي، **اللغة و الهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية**، 2013 **المركز العربي لأبحاث و دراسة السياسات**، الطبعة الأولى.

لطيفة النجار، **اللغة و الهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية** 2013، **المركز العربي لأبحاث و دراسة السياسات**، الطبعة الأولى، بيروت.

هنتنغتون صامويل، **صدام الحضارات إعادة صنع النظام**، 1994ترجمة طلعت الثابت، سطور، الطبعة الثانية.

المراجع باللسان الاجنبي

Paula González Fernández, Linguistic Imperialism: A Critical Study, 2005 Revista Alicantina de Estudios Ingleses 18.